ماري فرانس جيابزي*

تصريح بلفور: أصول النزاع العربي ـ الإسرائيلي

Jonathan Schneer. *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab-Israeli Conflict*

London: Bloomsbury Publishing, 2011. 432 pages.

في الحرب العالمية الأولى، قضت بريطانيا وحلفاؤها على التنين العثماني في الشرق الأوسط، وبسياساتهم هذه زرعوا أنياب التنين. ومن الأرض، خرج رجال مسلحون وما زالوا يخرجون (ص ٣٧٦).[١]

في كتابه "تصريح بلفور: أصول النزاع العربي ـ الإسرائيلي"، يقدّم المؤرخ البريطاني جوناثان شنير[٢] صورة غير عادية ومفصلة للاعتبارات والمناورات وراء "تصريح بلفور"، وللعملية التي أطلقها هذا التصريح والتي أدّت ـ فيما أدّت إليه ـ إلى قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، مدرجاً هذه العملية بصورة عامة في الدبلوماسية المسعورة وغير المستقيمة التي أطلقتها بريطانيا في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى، في سعيها لتحقيق أطماعها الاستعمارية في آسيا والشرق الأوسط.

ولتوضيح هذه العملية التي نُشر بشأنها كثير من الدراسات في البلاد الغربية تحديداً، يتوقف جوناثان شنير ـ وهو الأستاذ المتخصص في تاريخ بريطانيا الحديث ـ عند الأساليب الخدّاعة والمنافقة التي استخدمتها بريطانيا لتفكيك الإمبراطورية العثمانية والاستيلاء على المناطق التي كانت تحت الحكم العثماني، وللانتصار تالياً على أعدائها في الحرب الدائرة بين دول "الوفاق الثلاثي" (أي بريطانيا وفرنسا وروسيا أساساً)، ودول الوسط (أي "التحالف الثلاثي" الذي ضمّ الإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية النمساوية ـ المجرية أساساً، ثم الإمبراطورية العثمانية ومملكة بلغاريا).

* أكاديمية لبنانية.

إنه عملٌ في التاريخ السياسي لافت ومثير، لامع ومشوق، يتألف من خمسة أقسام متوازنة ومخصصة للبحث في دينامية جميع الأطراف السياسية التي أدّت في مطلع القرن العشرين إلى سلب الفلسطينيين أرضهم وحقوقهم، وإعطاء الشرق الأوسط شكله الحالي؛ عملٌ موجه إلى جمهور عريض من القرّاء، وليس فقط إلى أهل العلم والاختصاص. ويستند الباحث في عرضه إلى عدد كبير من الوثائق التاريخية، بعضها غير منشور، وبعضها وُضع حديثاً في متناول الباحثين، ليكشف من دون موارِبة خفايا "وعد" بلفور، والخطوات التي قامت بها بريطانيا لتأمين مصالحها. ولا يكتفي الكاتب بعرض وقائع ومعطيات تاريخية، بل يتناول أيضاً الدوافع الذاتية والخلفيات الفكرية والاجتماعية للفاعلين السياسيين وراء تصريح بلفور، في أسلوب حي وجذاب يثير اهتمام القارئ حتى آخر صفحة، على الرغم من ضخامة الكتاب والكمية الهائلة للمعطيات والمعلومات. ولتسهيل تقدّم القارئ في فهم المسيرة المعقدة ذات الطيّات العديدة للدبلوماسية البريطانية التي سمحت للمشروع الصهيوني بأن يرى النور، يقدم جوناثان شنير في بداية الكتاب وقبل المقدمة قائمة (بحسب الترتيب الأبجدي)، بأسماء أهم الشخصيات السياسية التي أدت دوراً بارزاً في هذه العملية، مع تعريف موجز لها. والقائمة هذه تحوي أسماء ٥٦ شخصية ذات انتماءات وجنسيات مختلفة، وخصوصاً بريطانية، وصهيونية، وعربية، وفرنسية، وتركية.

يمكن تلخيص الرؤية التي تميّز منطق جوناثان شنير في هذا العمل، والتي تحكم ترابط جميع أقسام الكتاب، كالآتي: بإقرارها تصريح بلفور في سنة ١٩١٧، تبنّت بريطانيا المشروع الصهيوني ليس بسبب اقتناعها به، وإنما لأنه كان يخدم مجهودها الحربي ويزيدها قوة في الحرب الكبرى الدائرة، حيث المعسكر المنتصر حتى ذلك الحين كان معسكر "التحالف الثلاثي" بقيادة ألمانيا.

لكن، إذا كان صحيحاً أن هذه الصفقة نجحت في تأمين خطوط القوة للمشروع البريطاني في تحقيق الانتصار على ألمانيا، فإنها شكلت في الوقت نفسه الشرارة التي أطلقت الغضب والنار في الشرق الأوسط، و"أصول النزاع العربي ـ الإسرائيلي"، كما يشير عنوان الكتاب. والنزاع هذا، المستديم منذ مئة سنة تقريباً، لن يزول برأي الكاتب، كون الإنجليز، عندما أقروا تصريح بلفور وأطلقوا الآلة الصهيونية لم يدركوا جوهر مشروع الصهيونية وأبعاده، ولم يتصوروا إطلاقاً الكوارث التي سيتسبب بها. إذن، هو تصريح مفتعل وغير مدروس، ويخدم مصالح توسعية أنانية، ولا أساس له في حق الشعوب في العيش بسلام وكرامة، أو في رؤيا حضارية، الأمر الذي يفسر أنه "أسفر باكراً عن خيبة أمل، وعدم ثقة، وحقد" (ص xxvix). ولذا، فإن الاستنتاج الذي يخلص إليه الكاتب في القسم الأخير من المؤلف يأتي على شكل الحكم والإدانة، إذ يقول:

> الخطوات التي أدت إلى تصريح بلفور، كونها مستحيلة التوقّع وموسومة بالتناقضات، والخدع، والتفسيرات الخطأ، والرغبات غير الواقعية، زرعت أنياب التنين... فأنتجت حصاداً إجرامياً ونحن نواصل الحصد حتى اليوم (ص ٣٧٦).

الحالة قبل إعلان تصريح بلفور

في خريف سنة ١٩١٧، عشية إعلان تصريح بلفور، كان المشهد الحربي قاتماً بالنسبة إلى حلف

"الوفاق الثلاثي"، إذ بدا واضحاً حينذاك أن بريطانيا وحلفاءها فاشلون في حسم الموقف وتحقيق النصر العسكري على ألمانيا وحلفائها، وخصوصاً أن روسيا كانت قد خرجت من الحرب بعد نجاح الثورة البلشفية في تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٧، واتجهت جدياً نحو توقيع معاهدة سلام منفصلة مع ألمانيا،[٣] الأمر الذي يعرّض دول "الوفاق الثلاثي" لهزيمة مخزية ومكلفة جداً في حال بقيت القوى المتصارعة على حالها، وفشلت بريطانيا في دفع الولايات المتحدة إلى الدخول بقوة في الحرب إلى جانبها. فكان "تصريح بلفور"، وهو الخطوة التي ارتأتها وزارة الخارجية البريطانية، مناسبة لكسب يهود العالم والولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء للخروج من المأزق المميت،[٤] فشكّلت جزءاً من المراهنة اليائسة التي قامت بها بريطانيا لهزم ألمانيا.

ففي الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧، وجّه آرثر جيمس بلفور[٥] ـ وزير خارجية بريطانيا آنذاك ـ رسالة إلى اللورد ليونيل والتر روتشيلد،[٦] أحد القادة البارزين في الحركة الصهيونية البريطانية، طالباً منه أن يحيط منظمة الاتحاد الصهيوني في بريطانيا وإيرلندا علماً بالتصريح المتضمن في هذه الرسالة، كونه عُرض على حكومة لويد جورج التي أقرّته،[٧] على الرغم من اختلاف الآراء داخل الحكومة بشأن وجاهة المشروع الصهيوني في حل المشكلة اليهودية[٨] بصورة عامة، ومعارضة البعض مشروع إحياء "دولة إسرائيل"، كما دعا إليه تيودور هيرتسل[٩] في المؤتمر الصهيوني العالمي الأول، في نهاية القرن التاسع عشر.

وممّا جاء في هذا التصريح الذي يُسمى عامة "وعد بلفور":

> إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يُفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر.

نُقل إلى العلن تصريح بلفور بعد شهر واحد من إقراره، في حفل أقيم رسمياً في دار الأوبرا في لندن، وحضره معظم أعضاء وزارة الخارجية البريطانية، وممثلو اتحاد النقابات الصهيونية الذي كان يرئسه حاييم وايزمان، فضلاً عن حشد من الشخصيات البريطانية اليهودية ورجال الإعلام والناس العاديين أيضاً. وهؤلاء جميعاً، هلّلوا لهذا الإنجاز، غير مدركين أن الطريق نحو تحقيقه لن يكون "مثل تقدّم المنتصرين"، وأنه يحمل في طياته "بذور المشاعر بالخيانة والحقد وعدم الثقة وأعمال العنف التي ستحل في الشرق الأوسط إلى ما لا نهاية" (ص xxix).

ولوصف الجو الذي كان سائداً في لندن في اليوم الذي أُعلن تصريح بلفور، يشير جوناثان شنير في مدخل الكتاب ـ أراده الكاتب مقدمة وخاتمة[١٠] في آن، ربما للقول إن الذي حلّ في بلاد العرب تعود أسبابه أساساً إلى تصريح بلفور وإلى مجرى الدبلوماسية البريطانية غير الصادقة ـ إلى "التحالفات غير المحتملة، والأخطاء، والدسائس، والمنافقات، التي دخلت في صنع هذا التصريح" (ص xxviii). وقال:

> كان الطقس بارداً وممطراً وشديد الريح، وبدا النهار معتماً، متطابقاً مع الآفاق البريطانية في الحرب الكبرى حيث المأزق. [....] كان على بريطانيا وفرنسا أن يجدا، بطريقة أو بأخرى، الإرادة والوسائل الضرورية للصمود (ص xxvii).

العجز البريطاني والحيل للخروج من المأزق

لم يكن الاتحاد الصهيوني الطرف الأول والوحيد الذي تَعده بريطانيا بالحصول على أرض فلسطين.

ففي بداية الحرب، عندما التحق العثمانيون بالحلفَ الثلاثي الذي كانت ألمانيا تقوده في المواجهة مع معسكر الحلفاء، أصرّت ألمانيا على القيادة العثمانية أن تعلن الجهاد ضد إنجلترا وفرنسا، أملاً منها بإحداث انتفاضات في الهند وإفريقيا الشمالية تضعف الحليفين وتسرّع في هزيمتهما. فلبّى العثمانيون طلب الألمان وراحوا يعبئون رعاياهم في جميع المناطق التي هي تحت حكمهم، ويجنّدونهم في قتالهم ضد الإنجليز.

لقد أثارت الدعوة إلى الجهاد مخاوف الدوائر السياسية البريطانية الرسمية، فسارعت بريطانيا في تقديم عروض إلى السلطنة العثمانية فحواها أنه، في مقابل إلغاء تحالف السلطنة مع ألمانيا، وإبرام اتفاق سلام منفرد مع بريطانيا، والتزام الحياد في الحرب الدائرة في أثناء ذلك، "يبقى العلم العثماني يرفرف في فلسطين، وسوريا الكبرى، وبلاد ما بين النهرين، في ظل الإدارة البريطانية، علاوة على امتيازات أخرى" (ص xxviii)، بما في ذلك مبلغ كبير من المال.

إلاّ إن أنور باشا ـ أحد قادة حركة تركيا الفتاة وعضو الهيئة الثلاثية التي حكمت الدولة العثمانية من سنة ١٩١٣ حتى سنة ١٩١٨، وهي الفترة التي تولى خلالها مهمات وزير الحربية ـ رفض العروض البريطانية تكراراً،[١١] الأمر الذي دفع الإنجليز إلى التوجه نحو العرب بغية فتح جبهة جديدة ضد العثمانيين، مراهنين على تنامي الشعور المعادي للسلطة العثمانية في صفوف العرب عامة[١٢]، ولا سيما أن الحركة القومية العربية المتنامية آنذاك كانت تخشى الوقوع تحت سيطرة بريطانيا أو فرنسا في حال انهزم معسكر الحلف الثلاثي.

اختار الإنجليز الشريف حسين بن علي، حاكم الحجاز في شبه الجزيرة العربية، للقيام بهذه المهمة، نظراً إلى موقعه الديني وتأثيره المعنوي في المسلمين العرب، فضلاً عن مزاياه الشخصية والسياسية. ولكسب تأييده وإقناعه بالقيام بثورة مسلحة ضد الحكم العثماني المتحالف مع الألمان، قدّمت له بريطانيا في سنة ١٩١٦ وعداً بتأييد إقامة مملكة عربية موحدة ومستقلة تحت حكم الشريف حسين وأولاده (مملكة وراثية إذاً). وجاء هذا الوعد عبر سلسلة من المراسلات (١٠ تحديداً) بشأن مستقبل بلاد العرب، جرت بين المفوّض السياسي الأعلى في مصر، سير هنري ماكماهون والشريف حسين.[١٣] وتعهدت بريطانيا أيضاً بأن توفر للعرب مساعدة لوجستية، وأسلحة، ومواد غذائية، وتجهيزات متنوعة، لإسنادهم في ثورتهم ضد العثمانيين.

وعلى الرغم من وجود بعض الغموض إزاء حدود هذه المملكة، فإن الإنجليز اتفقوا مع الشريف حسين على أن تضم هذه المملكة مجمل الأراضي العربية التي تقع تحت الحكم العثماني، "باستثناء مقاطعات مرسين، وإسكندرون، وبعض أقسام من سورية، تقع غرب مقاطعات دمشق، وحماة، وحمص، وحلب، حيث السكان ليسوا جميعاً من العرب، على ألاّ يُمس بمصالح الحليف الفرنسي" (ص ٦٤). إلاّ إنه اتضح فيما بعد أن ماكماهون استثنى فلسطين من المملكة العربية الموعودة للشريف حسين، بينما اعتبر هذا الأخير أن المملكة العربية المنشودة ستضم فلسطين، لأن الاتفاق لم يأت على ذكر فلسطين بالاسم تحديداً، وكون فلسطين لا تقع غربي مقاطعة دمشق، بل جنوبيها.[١٤]

وبينما وعدت بريطانيا العرب بالاستقلال في مقابل الانتفاضة على الحكم العثماني ومحاربة جيوشه، كانت المحادثات جارية سراً بين ممثلي بريطانيا وفرنسا (مارك سايكس

وفرنسوا جورج ـ بيكو) بشأن اقتسام أراضي الإمبراطورية العثمانية بين الدولتين. وفي أيار / مايو ١٩١٦، أسفرت هذه المحادثات عن "معاهدة سايكس ـ بيكو" التي نصّت على تجزئة الشرق الأوسط واقتسام مناطقه بين بريطانيا وفرنسا. ولأن فرنسا رفضت أن تحظى بريطانيا بفلسطين، معتبرة أن فلسطين جزء من سوريا الكبرى، وبالتالي أنها ستقع في المنطقة العائدة إلى فرنسا، رسا الاتفاق في النهاية، وبعد نقاشات حادة ومتكررة، على مبدأ التدويل بالنسبة إلى فلسطين، كون مفتاح النصر في الحرب الجارية، برأي المفاوضَين الإنجليزي والفرنسي، موجوداً في يد المؤسسة الصهيونية، ولأنه مستبعد تماماً. كما جزم الممثل البريطاني مارك سايكس، مستنداً إلى العواقب التي أنتجتها قضية درايفوس[١٥] في فرنسا ـ أن تقبل هذه المؤسسة بإدارة فرنسية لشؤون اليهود، ولو بصورة موقتة (ص ١٦٥).

أمّا روسيا القيصرية التي شاركت أيضاً في هذه المحادثات، إلى جانب إيطاليا المعنية بمستقبل الأراضي الليبية،[١٦] فوافقت على بنود "معاهدة سايكس ـ بيكو" أملا بالحصول على مكاسب محددة، لأن بريطانيا وعدتها باكراً ـ كي تبقى في الحلف ضد معسكر الألمان ـ بتلبية أمنية كثيراً ما سعت روسيا القيصرية لتحقيقها منذ قرون، وهي "أخذ القسطنطينية والاحتفاظ بها والسيطرة على مضيق الدردنيل" (ص ٤١)، الأمر الذي يسمح لها بالوصول إلى المياه الدافئة، والحصول على نافذة على البحر الأبيض المتوسط. وبالنسبة إلى فلسطين تحديداً، فقد قبلت روسيا بالاقتراح التي قدّمته وزارة الخارجية البريطانية، وفحواه: أن يقال للصهيونيين اليهود إنه "مع الوقت، عندما تزداد قوة المستوطنين اليهود في علاقتهم بالعرب، سيُسمح لهم بأن يتولوا إدارة شؤون فلسطين الداخلية، شرط أن تبقى القدس والأماكن المقدسة تحت مراقبة دولية" (ص ١٦٦).

لم يعلم العرب بتآمر بريطانيا مع فرنسا، وبقوا أوفياء للإنجليز، فالتزموا بتعهداتهم حتى نهاية الحرب، وتمكنت ثورتهم من هزم الجيوش العثمانية وإخراجها من الأراضي العربية،[١٧] الأمر الذي شكّل الضربة القاضية للتحالف الثلاثي الذي قادته ألمانيا.

وفي الواقع، ظلّت الاتفاقات البريطانية كلها سرّية، ومحصورة بين الطرفين المعنيين في كل حالة إجمالاً، باستثناء تصريح بلفور، ليس لأن البريطانيين كانوا مهتمين فعلاً بحلّ المسألة اليهودية، وإنما لأنهم وحلفاءهم كانوا في مأزق في الحرب ضد معسكر الألمان. إن إنجاح الوظيفة المقدرة لهذا التصريح ـ إثارة اهتمام الحركة الصهيونية العالمية (وخصوصاً فرعها الأميركي) للحصول على تأييدها ومساندتها المالية، وممارسة الضغوط على الإدارة الأميركية كي تكثف مجهودها الحربي إلى جانب الحلفاء ـ كان يفترض حتماً أن يكون التصريح علنياً.

خلاصة الأمر، فإنه حتى إذا استثنينا بريطانيا نفسها التي كانت تطمع إلى الاستيلاء على فلسطين بمفردها، كما يتضح من المحادثات بين الإنجليز والفرنسيين التي سبقت "معاهدة سايكس ـ بيكو"، بسبب موقع فلسطين الجيو ـ استراتيجي، وبغية تأمين طريق الهند والتمكن من مراقبة تطور الأوضاع في مصر وقناة السويس، يتبيّن من دراسة جوناثان شنير أن بريطانيا قطعت وعوداً بأرض فلسطين لثلاث جهات في الوقت نفسه تقريباً: السلطنة العثمانية؛ الشريف حسين وأولاده؛ المنظمة الصهيونية العالمية؛ بينما كانت تعمل على تقاسم جميع الأراضي العربية، والشرق الأوسط عامة، مع الدولة الفرنسية، حليفتها ومنافستها في التهافت على المنطقة ووراثة التركة العثمانية، مستخدمة الكيان الفلسطيني ورقةَ تبادل في سعيها لتحقيق أهدافها الاستعمارية الخاصة. وبرأي جوناثان شنير، فإنه حتى لو قبل العثمانيون العرض البريطاني المذكور أعلاه، لما كان لوعد بلفور أن يكون.

وحيال خيانة الإنجليز للاتفاق مع الشريف حسين، يتساءل الكاتب، بشيء من الأسف، عن موقف الحكومة البريطانية فيما لو تقدّمت بشكل أسرع الثورة العربية التي قادها بنجاح الأمير فيصل، أحد أولاد الشريف حسين، واستطاع العرب التغلب على القوى العثمانية قبل نهاية سنة ١٩١٧: في تلك الحالة، هل كان لوعد بلفور أن يرى النور؟ (ص ٣٢٥)

المشروع الصهيوني واتجاهات الرأي في بريطانيا

لم يكن تصريح بلفور ليوجد في أوائل القرن العشرين، فحتى في اللحظة الأخيرة عندما أقرته حكومة لويد جورج الحربية، لم يكن مروّجوه واثقين من إصداره.

هذا ما يكشفه الفصل الذي يكرسه جوناثان شنير لتفحّص التصورات الجماعية التي حملها الرأي العام البريطاني اليهودي في ذلك الحين إزاء المشروع الصهيوني الهادف إلى إقامة وطن قومي لليهود، واتجاهات الرأي التي سادت الدوائر الرسمية بشأن القضية اليهودية حتى اندلاع الحرب في سنة ١٩١٤.

ويكشف لنا أيضاً، أن الموقف السائد في جميع الأوساط البريطانية اليهودية في مطلع القرن العشرين، كان عدم الاكتراث للموضوعات الصهيونية، وعدم التعاطف مع مشروع بناء وطن قومي لليهود، حتى في أوساط المهاجرين الجدد الذين أتوا إلى بريطانيا هرباً من سياسة روسيا وبلاد البلقان التعسفية تجاههم. إن أغلبية الجماعة البريطانية اليهودية، وخصوصاً أولئك الذين ترعرعوا في بريطانيا منذ جيلين وأكثر، ويتمتعون بأوضاع اقتصادية واجتماعية جيدة ومرموقة، كانت تحبذ الانخراط في التيار المجتمعي الرئيسي، لأن ظاهرة معاداة السامية كانت ضعيفة نسبياً في بريطانيا. وكانت هذه الجماعة تنظر بارتياح واعتراف بالجميل إلى الدولة البريطانية، لأن هذه الأخيرة كانت تمنح اليهود منذ سنة ١٨٥٨ حقوقاً مدنية وسياسية متساوية مع تلك التي يتمتع بها المواطنون البريطانيون. أمّا بالنسبة إلى إخوانهم في الدين الذين يعانون المصاعب وحملات التنكيل في بلاد أُخرى (روسيا وبلاد البلقان خاصة، وفرنسا بدرجة أقل)، فقد سعت النخبة اليهودية البريطانية لتأمين المساعدة لهم (مادية وتقنية بصورة خاصة)، من أجل تسهيل اندماجهم في المجتمعات حيث يقيمون، ولدفع الحكومة البريطانية إلى التدخل لدى المسؤولين في تلك البلاد كي تُرفع القيود التي تنقص من حقوق المواطنين اليهود ويتم تحسين معاملتهم (ص ١١١).

وكانت الحال مماثلة داخل الدوائر الرسمية البريطانية، إذ لم ير السياسيون، في معظمهم، أساساً للمشروع الصهيوني، ولا مصلحة للدولة البريطانية في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، لاعتبارهم أنه لا يوجد قومية يهودية، وأنه يجب التمييز بين الدين والقومية. والحل بالنسبة إلى معاناة اليهود في البلاد حيث التمييز العنصري والاضطهاد، إنما هو الاندماج بالمجتمعات التي يعيشون فيها، وليس إنشاء "غيتو جديد"[١٨] لهم في فلسطين. وفضلاً عن توجيه الاحتجاجات، وممارسة الدول الديمقراطية الضغوط على سلطات البلاد ذات السياسات التمييزية حيال اليهود كونهم يهوداً، فإن من المستحسن أن يصار إلى نزع الطابع الطقسي المميز عن سلوك اليهود الديني بصورة عامة (deritualize)، لتسهيل اندماجهم في أوطانهم. وتجدر الإشارة إلى أن العالم اللاهوتي اليهودي كلود مونتفيور هو الذي دعا إلى تبنّي هذا الإجراء.[١٩]

ثمة مؤسستان بريطانيتان كان لهما الدور البارز في التصدي للمشروع الصهيوني وعرقلة تبنّي الحكومة البريطانية تصريح بلفور حتى صدوره في سنة ١٩١٧: الأولى، "الجمعية الإنجليزية ـ

اليهودية"[٢٠] التي بقيت على موقفها الرافض للمشروع الصهيوني حتى سنة ١٩٣٠، بقيادة لوسيان وولف،[٢١] وأدوين مونتاغو المسؤول السياسي الذي قاد المعارضة لتصريح بلفور في حكومة لويد جورج، وكلود مونتفيور رئيس "الجمعية الإنجليزية ـ اليهودية" من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٩٢١؛ الثانية، "هيئة النواب البريطانيين اليهود" التي عرفت صراعاً حاداً بشأن هذا الموضوع انطلاقاً من تاريخ طرحه في الحكومة، وتبنّت المشروع الصهيوني بعد إعلان تصريح بلفور رسمياً. وكانت هاتان المؤسستان قد أنشأتا لجنة مشتركة تهتم بشؤون البريطانيين اليهود الخارجية هي Conjoint Foreign Committee of the Board of Deputies of British Jews، حفاظاً على الهوية الخاصة بكل واحدة منهما، وعلى استقلاليتهما.

لكن مع اندلاع الحرب، لم يدم هذا الوضع طويلاً. وفي هذا الصدد، يقول جوناثان شنير إن "الحرب العالمية غيّرت كل شيء، بما في ذلك موقف الحكومة البريطانية من الذين سمّتهم الحالمين الصهيونيين [....]" (ص ١١١). وبينما لم يحظ ممثل المؤتمر الصهيوني العالمي، نعوم سوكولوف،[٢٣] على الرغم من مقامه غير العادي وزياراته المتكررة لبريطانيا طوال أكثر من عشرة أعوام، بأي أذن صاغية في وزارة الخارجية البريطانية، إذ ساد الاعتبار القائل إن المشروع الصهيوني مجرد يوتوبيا غير واقعية، في حين أن العاملين جميعاً في تلك الوزارة، من أصغرهم إلى أكبرهم، تصرفوا بتحفظ شديد تجاهه، فقد أصبحت الحركة الصهيونية جديرة بالاهتمام مع اندلاع الحرب وإحراز المعسكر الألماني التقدم والانتصارات على معظم الجبهات.

ويُرجع جوناثان شنير الفضل في إقرار حكومة لويد جورج تصريح بلفور إلى حاييم وايزمان الذي أحسن تقدير وضع بريطانيا الحرج، والمأزق الذي وصلت إليه في الحرب الدائرة. والمؤلف يصف بدقة صعود وايزمان، ونجاحه، بالتعاون مع زميله نعوم سوكولوف (رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي)، وبفضل علاقاته داخل بريطانيا (ودول غربية أُخرى منها الفاتيكان) والولايات المتحدة، في إقناع شخصيات بريطانية نافذة (لورد هربرت أسكيث، رئيس الحكومة البريطانية من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٦، ولورد أرثر بلفور، وسير مارك سايكس، وغيرهم) بوجاهة المشروع الصهيوني لحلّ المسألة اليهودية، الأمر الذي سمح في نهاية المطاف، بعد نقاشات طويلة ومتكررة، بالوصول إلى تصريح بلفور كما نعرفه اليوم. وقد يكون منطلق عملية التقارب بين المؤسسة الحاكمة في بريطانيا وايزمان، العالم في الكيمياء، اكتشافه طريقةً في صنع مادة الأسيتون من الحبوب لا من الخشب ـ وهي مادة مستخدمة في صنع المتفجرات، نادرة في بريطانيا آنذاك وضرورية للمدفعية ـ وإعطاءه بريطانيا تركيبتها كي تستخدمها في الحرب الدائرة، فضلاً عن الخدمات التي قدمها إلى وزارة البحرية عندما كان لويد جورج وزيراً للذخائر.[٢٤] لكن الكاتب لم يتوقف كثيراً عند هذه النقطة.

هذا الكتاب عمل لافت وغير عادي، كما قلت، يخرج عن الأفكار السابقة والآراء الشائعة التي تقول إن تصريح بلفور انتصار لليهود وحل نهائي لمشكلاتهم ومعاناتهم ـ كون هذا التصريح يُعتبر بصورة عامة حجر الزاوية لدولة إسرائيل ـ ويبيّن أنه كان من الأفضل، سواء بالنسبة إلى اليهود، أو إلى شعوب الشرق الأوسط، والبشرية جمعاء، لو أن هذا التصريح لم ير النور، نظراً إلى "الأعمال الإجرامية التي تسبّب بها"، كما يقول جوناثان شنير. لكن هذا لا يعني أن هذا الكتاب خالٍ من الأخطاء والنواقص ونقاط الضعف، وسنتحدث عن بعضها.

نبدأ من عنوان القسم الأول "sirocco"، وهو تحريف للكلمة العربية "شرقي"، أي ريح صحراوية، حارة وجافة، تحمل الغبار والرمال وتهبّ من الصحراء وشمال إفريقيا على جنوب أوروبا. إنه عنوان غير موفق لوصف الجو السائد في فلسطين في مطلع القرن العشرين، لا من ناحية المناخ، ولا

بالمعنى المجازي.

داخل هذا القسم، يشكو الفصل الأول (ص ٣ ـ ٣١) الذي يتناول فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى تحديداً، من مغالطات ونواقص عديدة. يبدأ الكاتب كلامه بالقول: "إن الأرض المسماة فلسطين لم تعط أي دلالة في مطلع القرن العشرين على أنها ستكون ساحة صراع عالمي عنيف، دموي ومستديمَ" (ص ٣). لماذا؟ لأن فلسطين ليست سوى "شريط من الأرض [....]، ناءٍ، ومتأخر وخامل، [....] حدوده غير واضحة، [....] سكانه قليلون، وأرضه موئل للثعالب والذئاب والضباع والنمور في قسمه الجنوبي" (ص ٣). وصف مجحف حقاً وغير دقيق؛ وكان يمكن للكاتب أن يحصل على معلومات بشأن جغرافيا فلسطين الفيزيائية أكثر دقة، لأنها متوافرة.

وعندما يحاول الكاتب تحديد عدد السكان في فلسطين وأصولهم، يبدو في حيرة كاملة: ٧٠٠,٠٠٠ أو أكثر؟ كنعانيون؟ فلسطينيون؟ أو عرب؟ وماذا عن نسبة اليهود من سكان فلسطين؟ ١٠٪ أو أقل؟ (ص ٥). في هذه المسائل أيضاً، لم يحسن الكاتب التدقيق.

وفي التعريف عن "الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين" ـ كما يحدد تصريح بلفور أهل فلسطين ـ يتحدث جوناثان شنير عن "الدروز وغيرهم من المسيحيين" (ص ٥). الدروز ليسوا من المسيحيين، وإنما طائفة إسلامية انشقت تاريخياً عن الطائفة الإسماعيلية في أثناء الخلافة الفاطمية في القرن العاشر، وتجمع الطائفة الدرزية في عقيدتها تعاليم فلسفية متنوعة.

ثم يشير في حديثه عن التعددية الطائفية في فلسطين إلى "السنّة والشيعة"، وإلى "النزاع السني ـ الشيعي الذي يدور في فلسطين" (ص ٩)، بينما يتجاهل أوضاع الطوائف المسيحية التي تعيش في فلسطين. من المعروف أن الشيعة غير موجودين في فلسطين، لا في الماضي ولا حالياً. وقد يكون من الأصح الإشارة إلى الصراعات التي كانت تحدث بين العصبيات العائلية أو العشائرية المتنافسة. أمّا مسيحيو فلسطين، فكانوا من طائفتَي الروم الأورثوذكس والروم الكاثوليك.

باختصار، يقدم الكاتب صورة تقريبية وتخمينية مجتزئة للتوزيع الطائفي لسكان فلسطين وأصولهم التاريخية، وهو ما يدل على عدم الدقة والنقص.

أمّا عند تناوله النشاطات الاقتصادية والتجارية لأهل البلد في الريف والمدن، وحياتهم الروحية والفكرية والاجتماعية، فإنه يختصر الأمر إلى درجة يصعب معها للقارئ أن يكوّن معرفة حقيقية عن الواقع المعاش في فلسطين، الأمر الذي يدعو القارئ إلى التفكير في أن الفلسطينيين كانوا فعلاً يعيشون في حالة من الفقر والتخلف والبدائية أيام السلطة العثمانية.[٢٥] باختصار، فإن أهم ما نأخذ على الفصل الأول هو نظرة جوناثان شنير الدونية إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للفلسطينيين قبل مجيء البريطانيين.

من ناحية أُخرى، وفيما يتعلق بالعوامل التي أثّرت في تبنّي الحكومة البريطانية تصريح بلفور، هناك مسألة لم يتوقف الكاتب عندها قط، وهي دور المسيحيين الصهيونيين في استصدار وعد بلفور. هذه الفئة من المسيحيين تعتقد أن عودة اليهود إلى أرض أجدادهم هي شرط إلزامي لعودة المسيح إلى الأرض. وبما أن الصهيونية المسيحية وُلدت كمدرسة وتيار في بريطانيا حيث كان تأثيرها قوياً، وأن اللورد بلفور ولويد جورج وغيرهم من المسؤولين الرسميين كانوا من أنصار هذه المدرسة، فإن عدم التوقف عند دورها يبدو غير مبرر ويشكل نقصاً فعلياً.

يبقى أن نذكّر بأن جوناثان شنير مؤرخ بريطاني مختص بتاريخ بريطانيا الحديث، وبأن بحثه مفيد جداً لفهم سياسة بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى وخلفيات "وعد" بلفور الشديدة التعقيد. ■

المصادر

١ ترجمة المقتطفات الواردة في هذا النص إلى العربية تعود إلى صاحبة المراجعة.

٢ جوناثان شنير مؤرخ بريطاني، اختصاصي بتاريخ بريطانيا وأوروبا الحديث، وأستاذ في جامعة جورجيا تيك: مدرسة التاريخ والتكنولوجيا والمجتمع؛ له عدة مؤلفات منها: "لندن ١٩٠٠، والعاصمة الإمبراطورية"، و"التايمز: نهر إنجلترا". وهو يعمل حالياً على كتاب عن وينستون تشرشل وحكومته الحربية.

٣ لم تُقَرّ معاهدة برست ـ ليتوفسك بين روسيا والحلف الثلاثي لدول الوسط، وهي معاهدة السلام التي أخرجت روسيا من الحرب العالمية الأولى، قبل ٣ آذار / مارس ١٩١٨، على الرغم من وجود اتفاق هدنة بين الطرفين في هذا الشأن منذ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧، وكذلك رغبة البلاشفة في الإسراع في المفاوضات نظراً إلى الحرب الأهلية الدائرة في بلدهم. وبعض المؤرخين يعتبر أن هذا التأخير الذي أثّر سلباً في نتائج المفاوضات بالنسبة إلى القيادة البلشفية الجديدة، سببه الضغوطات التي مارستها بريطانيا على البلاشفة اليهود النافذين في هذه المرحلة في روسيا للحصول على الوقت الإضافي.

٤ لم تصبح الولايات المتحدة حليفاً لبريطانيا وفرنسا في الحرب ضد دول الوسط قبل نيسان / أبريل ١٩١٧، على الرغم من تفجير باخرة لوزيتانيا في أيار / مايو ١٩١٥ الذي تسبب بمقتل ١٢٠٠ شخص، بمَن فيهم ١٢٨ أميركياً. وجاءت حرب الغواصات التي شنّها الألمان ضد سفن الشحن الأميركية، واكتشاف محاولة الألمان التحالف مع المكسيك ضد الولايات المتحدة، ليدفعا الأميركيين إلى دخول الحرب في أواخر سنة ١٩١٧. علاوة على ذلك، كان أصحاب المصارف في الولايات المتحدة يخشون انكسار الحلفاء، لأنهم كانوا قد أقرضوا بريطانيا وفرنسا أموالاً طائلة لتمكينهما من شراء المواد الأولية والأغذية. فإذا هُزم الحلفاء، فإنهما لن يتمكنا من تسديد قروضهما... ومن هنا أيضاً مورست ضغوط شديدة لدفع الولايات المتحدة إلى تكثيف مجهودها الحربي.

٥ لورد آرثر جيمس بلفور (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠)، رجل سياسي بريطاني من حزب المحافظين، خدم رئيساً لحكومة بريطانيا الملكية من تموز / يوليو ١٩٠٢ إلى كانون الأول / ديسمبر ١٩٠٥، ثم وزيراً للخارجية البريطانية من سنة ١٩١٦ إلى سنة ١٩١٩ في الحكومة الائتلافية الحربية التي كان ديفيد لويد جورج يرئسها. وتجدر الإشارة إلى أنه خلال فترة رئاسته الحكومة البريطانية، قُدم لتيودور هيرتسل، مؤسس الحركة الصهيونية العالمية في نهاية القرن التاسع عشر، اقتراحاً بإنشاء وطن ليهود العالم في أوغندا في إطار ما سُمي "البرنامج البريطاني لأوغندا" (١٩٠٣)، لكن بعد دراسة هذا الموضوع، أعلن المؤتمر الصهيوني السادس رفضه هذا الاقتراح (١٩٠٥).

٦ ليونيل والتر روتشيلد (١٨٦٨ ـ ١٩٣٧)، عالم حيوانات ورجل أعمال بريطاني، عضو البرلمان البريطاني ممثلاً للحزب اللبرالي ـ التوحيدي من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩١٠. كان روتشيلد من الصهيونيين الناشطين، وصديقاً حميماً لحاييم وايزمان.

٧ ديفيد لويد جورج (١٨٦٣ ـ ١٩٤٥)، رجل سياسي بريطاني، رئيس الحكومة الحربية البريطانية خلال الفترة ١٩١٦ ـ ١٩٢٢، وقائد الحزب الليبرالي من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣١، ويُعتبر المسؤول السياسي البريطاني الأساسي وراء التقارب البريطاني ـ الصهيوني وتصريح بلفور.

٨ من أهم معارضي المشروع الصهيوني في الحكومة الملكية آنذاك، أدوين مونتاغو (١٨٧٩ ـ ١٩٢٤)، وهو رجل سياسي يهودي ليبرالي معادٍ للصهيونية، قاد المعارضة في حكومة لويد جورج ضد تصريح بلفور، لكن قبل أن تبتّ الحكومة البريطانية في مسألة هذا التصريح، أُبعد مونتاغو من لندن وأُرسل إلى الهند بصفة وزير خارجية.

٩ تيودور هيرتسل (١٩٦٠ ـ ١٩٠٤)، صحافي يهودي نمساوي ـ مَجَريُّ، صاحب كتاب "دولة اليهود" الذي نُشر في فيينا في سنة ١٨٩٦، ومؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة. طُرحت لأول مرة فكرة إنشاء دولة ليهود العالم على أرض فلسطين في أثناء المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد في بازل (سويسرا) في سنة ١٨٩٧. ولكسب تأييد الدول الكبرى، لم يتردد هيرتسل في وضع مشروع بناء الدولة اليهودية في خدمة المساعي الاستعمارية، قائلا: "سنشكّل هناك أحد عناصر الجدار ضد آسيا وموقعاً متقدّماً للحضارة ضد البربرية." انظر:

Theodor HERZL, L'Etat des Juifs (Paris: La Découverte/Poche, 2003), p. 10.

١٠ وضع جوناثان شنير عنواناً لمقدمة كتابه مؤلفاً من مفردتين: Prelude and Postlude، ومصدر هاتين المفردتين يعود إلى الكلمة اللاتينية Lude، التي تعني "لعب" في اللغة العربية.

١١ يذكر جوناثان شنير أن بريطانيا قدمت خمسة عروض متنوعة للسلطنة العثمانية، رُفضت جميعها.

١٢ لمزيد من المعلومات الدقيقة بشأن سياسة الدولة العثمانية في الولايات العربية وفي فلسطين تحديداً، خلال الحرب العالمية الأولى، وعن تطور المواقف العربية منها، راجع: عادل مناع، "تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠ ـ ١٩١٤ (قراءة جديدة)" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣)، ص ٢٣٦ ـ ٢٧١.

١٣ هنري ماكماهون (١٨٦٢ ـ ١٩٤٩)، الممثل الأعلى لملك بريطانيا في مصر، وعد في مراسلاته مع شريف مكة، الشريف حسين بن علي، بين سنتي ١٩١٥ و١٩١٦، بأن بريطانيا ستعترف باستقلال مملكة عربية موحدة تضم الأراضي العربية في الشرق الأوسط إذا ما قام العرب بانتفاضة مسلحة ضد الحكم العثماني.

١٤ انظر "بروتوكول دمشق" في الموقع الإلكتروني التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/McMahon-Hussein_Correspondence

وفي هذه الوثيقة، يحدد الشريف حسين حدود المملكة العربية التي يطمح إلى إنشائها، والتي تضم فلسطين، إلاّ إن البريطانيين لم يلتزموا بوعودهم، متذرعين بوجود سوء تفاهم بينهم وبين الشريف حسين، كون ماكماهون لم يكن يحسن اللغة العربية، وأن التباساً حدث في فهم محتوى المراسلات المترجمة بين الطرفين.

١٥ قضية درايفوس التي هزّت المجتمع الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر طوال ١٢ سنة، من سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٩٠٦، أظهرت تفشي نزعة معاداة السامية واليهود في فرنسا وأوروبا. وكانت هذه القضية العامل الأساسي في بداية تنامي المشروع الصهيوني، وإحدى الخلفيات التي استند إليها تيودور هيرتسل لطرح فكرة الدولة اليهودية.

١٦ في إثر الحرب التي شنتها إيطاليا ضد العثمانيين للسيطرة على الأراضي الليبية في أيلول / سبتمبر ١٩١١، والتي دامت حتى تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٢، استطاعت إيطاليا أن تسيطر على ليبيا، وأن تفرض على العثمانيين الانسحاب من جميع الأراضي الليبية (معاهدة لوزان الأولى). واستمر الاحتلال الإيطالي لليبيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً.

١٧ لمزيد من المعلومات بشأن الثورة العربية في سنة ١٩١٦، راجع: مناع، مصدر سبق ذكره.

١٨ هذا هو موقف أدوين مونتاغو، أحد أعضاء حكومة لويد جورج.

١٩ كلود مونتفيور (١٨٥٨ ـ ١٩٣٨)، عالم لاهوتي انفصل عن الأورثوذكسية اليهودية وأسس اليهودية الليبرالية في بريطانيا. وتفسيره للدين اليهودي يقرّب هذا الأخير من التفسير البروتستانتي.

٢٠ "الجمعية الإنجليزية ـ اليهودية" جمعية تضامن شبه خيرية أُسست في سنة ١٨٧١ لمساعدة اليهود في المجال التربوي والتعليمي والحقوقي.

٢١ لوسيان وولف (١٨٥٧ ـ ١٩٣٠)، مؤرخ ودبلوماسي بريطاني يهودي، عمل أيضاً في الصحافة كخبير بالشؤون الخارجية البريطانية، وتميّز بمواقف حازمة تجاه المشروع الصهيوني، وبكتابات فاضحة للسياسات الاضطهادية تجاه الجماعات اليهودية، وخصوصاً الروسية. كان وولف معادياً للصهيونية طوال حياته وناشطا ضد المشروع الصهيوني في "الجمعية الإنجليزية ـ اليهودية"، وكذلك في "اللجنة المشتركة للنواب البريطانيين المختصة بشؤون اليهود الخارجية". وبصفته ممثلاً لهذه الهيئة، شارك وولف في مؤتمر باريس للسلام الذي عُقد بعد الحرب (كانون الأول / ديسمبر ١٩١٩) حيث وضع مسودة المعاهدات التي تضمن حقوق الأقليات القومية: الإثنية، والدينية، واللغوية، والثقافية، في الدول التي تشكّلت في أوروبا بعد هزيمة المعسكر الألماني. في سنة ١٩١٨، ستُحلّ "الجمعية الإنجليزية ـ اليهودية"، وكذلك "اللجنة المشتركة للنواب البريطانيين المختصة بشؤون اليهود الخارجية"، بسبب موقفهما المعادي للصهيونية.

٢٢ أُسست "هيئة النواب البريطانيين اليهود" في سنة ١٧٦٠، وكان عملها مركزاً على توجيه الجماعة اليهودية البريطانية ومساعدتها في إدارة شؤونها ومكافحة معاداة السامية والتمييز بحق اليهود. وفي مطلع القرن العشرين، أيدت المشروع الصهيوني، وعملت على انتشاره في صفوف الشتات اليهودية.

٢٣ نعوم سوكولوف (١٨٥٩ ـ ١٩٣٦)، صحافي وكاتب يهودي من أصل بولوني، وكان في لندن من الدعاة النافذين للمشروع الصهيوني. أصبح سوكولوف في سنة ١٩٠٦ أمين عام المؤتمر الصهيوني العالمي، وتعاون بشكل وثيق مع حاييم وايزمان للحصول على "وعد" بلفور.

٢٤ انطلاقاً من سنة ١٩٠٤، عمل وايزمان أستاذاً في الكيمياء في جامعة مانشستر، واشتهر باستخدامه للاختمار البكتيري لإنتاج كميات كبيرة لأي مادة مرغوب فيها. وفي سنة ١٩١٢، تمكّن من إنتاج الأسيتون صناعياً، وفي سنة ١٩١٥، نقل طريقة صنعه إلى السلطات البريطانية بطلب من لويد جورج وونستون تشرشل، لأن الأسيتون يدخل في تركيب الذخائر، ولأن مخزون المادة الأساسية لصنعه كان آنذاك تحت سيطرة ألمانيا.

٢٥ مناع، مصدر سبق ذكره.